الطّريق إلى المغرب [1]

قـــــــراءة في الاستشـــراق [2]

بقلم: ألبرت حوراني
ترجمة: عبدالنبي اصطيف

ان موضوع هذا الكتاب القوي المقلقل هو الطريقة التي تخلق بها التقاليد الفكرية وتنقل · انها ـ كما يحاج ادوارد سعيد ـ لا تنهض ببساطة في عزلة من عقل المفكر أو الباحث · ولربما يحاول « الباحث أن يصل الى مستوى من الحرية النسبية من الواقع اليومي والمر » ولكنه لن يستطيع أن يهرب أو يتجاهل تماما « ارتباطه كموضوع انساني بظروفه المحيطة » ·

··· ان الامكانيات من اجل عمل ماثل في الثقافة هي بالنسبة الى عقل عظيم واصيل غير محدودة اطلاقا ·· فعمل السابقين ، والحياة المؤسسية للحقل الدراسي ، والطبيعة الجماعية لأية منشأة تعليمية ، كل هذه ـ فضلا عن الحديث عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ـ تميل الى الحد من تأثيرات نتاج الباحث الفرد · ان حقلا كالاستشراق له ذات تراكمية ونقابية ··· وقد كانت النتيجة اجماعا معينا : اشياء معينة ، انواعا معينة من البيانات ، وانواعا معينة من العمل بدت للمستشرقين انها صحيحة » ·

ان « **الاستشراق** » هو المثال الذي يستخدمه سعيد ليوضح موضوعه ، وهو يعني به شيئا دقيقا : الباحث الذي يدرس الشرق (وبالتحديد الشرق المسلم) ؛ والكاتب الخيالي الذي يتخذه موضوعا له ؛ والمؤسسات المعنية « بتعليمه ، وتهدئته ، وحكمه » ، كلهم يشتركون في أشياء : تمثيل معين له ، أو فكرة أن « الشرق » يعرف بأنه غير « الغرب » ، غامض ، غير متغير ، وفي النهاية ، أدنى منزلة ·

١ ـ انظر Albert Hourani, « The Road to Morocco », **The New York Review,** March 8, 1979, PP. 27-30.

٢ ـ انظر Edward Said, **Orientalism,** Routledge & Kegan Paul, London, 1978, 368 PP.

ان تمثيل الشرق هذا قد خلقه العقل الغربي بحرية تامة نسبيا ، لأن الشرق كقوة ـ شُعر بها وتم اختيارهـا بصدق ـ غائبـة تماما عن الثقافة الغربية تقريبا. فقد طورت وحفظت بنوع من الشراكـة الضمنية بـين الباحثين والكتاب وبين أولئك الذين ظفروا بالامبراطوريات وحكموها • وكان الباحثون والكتـاب علـى وعـي بالقـوة الغـربيـة كحقيقة مطلقة في شرق سلبي لا حول له ينتظر أن يحكم ويحتكر ، وقـد استنتـج الحكـام مسوغات أخلاقية وبالتالي نوعا من القوة من الفكرة الغربيـة عن الشـرق • وقد تمـت الوساطة في هذه الشراكة عن طريق المؤسسات ـ طرق رسمية معنية للتعليم والكتابة ـ التي حددت ماذا يمكن أن يدرس أو يقال عن الشرق •

وطريقة التفكير التراكمية هذه عن الشرق ، والتصرف تجاهه ، هي ما يدعوه ادوارد سعيد **بالاستشراق** • وبالطبع فان أي نوع من الفكـر يقتضي اقامة التمييـزات ، وتقيـم الحدود ، ولكن هـذا النوع من التحـديد في رأيه هو الذي كان ضارا بشـكل خـاص • وربما قام بدور الحافز للخيال الأوربـي ،وساعد على تشكيل الحس الغربي بالهوية ، ولكنه ما دام قد اعتمد في النهاية على اختلافات دينية وثقافية ، فانه قاد الى سوء فهـم للعمليات التاريخية • لقد جعل أمر رؤيـة الشرقيين ككائنات بشرية فردية أمرا غـير ممكن ، ما دامت ذواتهم قد استغرقت بفكرة « المسلم » « العربي » أو « الشرقي » ، وأدت ـ كجميع المقابلات الثنائية البسيطة لـ «نحن» و « هم » ـ الى اثارة محاكمات قيمة أخلاقية • ان الشرق يرى غريبا ، بعيدا ، مؤذيا ميتـأما لم تُعِد اليـه الحياة ، ومـأوى « للهولات والشرور والارهاب والمسرات والرغبات » •

ويجد السيد سعيد نواة هذه الرؤية للشرق في المواجهات الأولى لأوربـا الغربية مـع الاسلام • فالصراع من أجل التحكـم بحوض المتوسط سبب صدمة نفسية متكررة للعقل الأوربي ، لا يمكن التحكم بها الا من خـلال محاولة شرح الاسلام بكلمات مألوفة ، كوحي كاذب ، أو بدعة مسيحية • وعندئـذ ، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، عُلمِنت بنى الفكر الموروثـة عن المـاضي ، وأعيـد توزيعها وأصلحت ، وتحت تأثير النوع الجديد من الفضول الفكري وتوسع القوة الأوربية تم تحويل صورة العدو المسلم الى الصورة الحديثة للشرقي • عندها ظهـر أوائل المستشرقـين المحدثـين : الفـرنسي Anquetil-Duperron الذي اكتشف النصوص الأفستية Avestan texts وترجمها ، والانكليزي السير ويليام جونـز Sir William Jones الـذي ترجم الشـعر السنسيكريتي ، والقوانين الهندية ، والـذي كان متمكنـا لتـوه من العربيـة والعبريـة والفارسية قبل أن يغادر انكلترا الى الهنـد عام ١٧٨٣ • وقد كان جونز هاما على نحو خاص ، لأن مهنته كانت وثيقة الصلة بالدور الأول والفعال والدائم للأوربيين في مجتمـع شرقي : مجتمع شركـة الهنـد الشرقيـة في البنغال • وفي حياته وآثاره تغدو الصلة بين السيطرة السياسية والحاجة الى الفهم جلية •

وبعد جيل جاء غزو أوربي لقلب الشرق المسلم • ان الاحتلال الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨ لم يكن حادثا من حوادث حروب الثورة فقط ،ولكنه كان حركة من حركات الخيال أيضا؛

فقد قرأ بونابرت كتــاب الكونت دوفولنــي Comte de Volney « **رحلة في مصر وسورية** » **Voyage en Egypte et en Syrie** وكتابــات أخرى عن مصر ، وساعده ذلك علــى تكوين تصرفاته هناك : لقد كان علىوعي بأن أربعين قرنا كانت تزدريه وجنوده معا : ظن في نفسه أنه أتى ليعيد الحياة الى عالم ميت • وقــدقام الباحثون والعلماء الذين صاحبوه بأول عملية تخصيص لمجتمع وثقافة شرقيين •

وربما أفادت الحملة الفرنسية « الجغرافية الخيالية» أكثر مما أفادت مصر الحقيقية• فتمثيل الشرق فكريا وخياليا ، والسيطــرةعليه واعادة الحياة اليه ، كــل هذه المســاعي ما كانت الا لتخلق « حقل » المستشرق خــلال السبعين سنة ـ أو ما يقاربها ـ التي تلت • لقد اكتشف الباحثون النصوص وحققوهــاواقتطفوا منها ، وترجموها ، وفسروها : في البداية كجهد فردي • وبعد ذلك قنّن عملهم وتجسد في مؤسسات وتقاليد • والسيد سعيد معني أساسا باثنين من هذه التقاليد : التقليدالفــرنسي الــذي يبــدأ ب س ، دو ســاسي Silvestre de Sacy صــاحب كتب في النحو ، ومختارات عربية ؛ والتقليد الانكليزي الذي يرجع الى ادوارد ويليام لين Edward William Lane المعجمي ومترجم الليالي العربية، ومؤلف كتا بلا يزال مقروءا على نحو واسع هو : « **وصف لســلوك المصــريــين المحدثــين وعــاداتهـــم** » **An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptian**

وقد أغني هــذان التقليــدان بأفكــارمستمدة من ثقافة العصر العامة • وادوارد سعيد محق في تأكيده على فقه اللغــة ، وخاصة على ارنست رينان ، الذي طبَّق مناهجه في دراسة اللغات السامية • لقد كان فقــه اللغة أحد الدراسات الأساسـية في القــرن التاسع عشر ، بل كاد يكون ديانة معلمنة •وقد دعاها رينان « العلم الدقيق لموضوعــات عقلية » • ويبدو أنها تقدم طريقة لا لفهــم اللغات فحسب وانمــا لفهم طبيعــة الجنس البشري وتاريخه أيضا • وباعادة اللغات اليجذورهــا ، اســتطاعت فرزهــا الى أســر ، واقترحت أن أ'سر اللغــات يمكن أن تكــونأسرا للذوات التي تعبر باللغة عن نفسهــا أيضا : الديانات والأساطير ، الثقافات والعروق •

ويمكن ترتيب اللغــات ضمن العائلــة نفسها في نظام أجيال • وهكذا فان تصنيف اللغات والثقافات يمكن أن يؤدي الى تأريخها ،والىتاريخانسانيصرفلاتلعبفيهالميتافيزياء أي دور • ولكن السيد سعيد يؤكد أن فقــه اللغة نفســه ـ كمــا اســتخدم في الحقــل الاستشراقي ـ كان مقصورا على الاطــارالاستشراقي ، وكان يستخدم ليعطي قاعــدة علمية للقضاء الثنائي الموجــود لتــوه • ان اللغات الساميــة بالنسبة الــى رينان هــي أساسا أدنى من اللغات الآرية ، وغير قــادرةعلى تجاوز نقطة معينة في تطورها : « اننا نرفض بأن نسلم بأن للغات السامية القدرةعلى تجديد أنفسها » • ويقترح السيد سعيد في فقرة رائعة على نحو خاص أن هذه الفكرةأتت من تطبيق أفكار معينة ، كانت سائــدة في علم التشريح في ذلك العصر ، على فقــه اللغة : ان الساميات بالنسبة الى رينان هــي ما كــان بالنسـبة الى اتــين ســانت ايليــر Etienne Saint-Hilaire مسخا تشريحيا،ليست استثناءً بل هي شذوذ ، أو ظاهرة ذات تطور مغط أو مقيد •

وقد سارت عملية الاكتشاف جنبا الى جنب مع عملية التفحص العلمي • وذهب بعض الرحالة الى الشرق كباحثين ـ مثل لين Lane ـ لجمع المواد ، ومضى بعضهم ـ كشاتوبريان Chateaubriand ـ ليكتشف ذاته أو يقبض عليها ، وذهب آخرون ـ كبيرتن Burton ـ لخليط من الدوافع • وفي تحليل دقيق ليس فقط لما قالوه وانما للطرق التي قالوه بها ـ الترتيب ، الأسلوب، اللهجة ـ يميط السيد سعيد اللثام عن الاستشراق المستتر وراء اختلافاتهم في المنهج• لقد كانت حقيقة السيطرة ، توكيد سيادة أوربا ، الواقع الماثل ، وبدا الشرق ككائن ساقط ، جذاب ، ولكنه مليء بالمخاطر وخاصة الخطر الجنسي •

لم يكن الشرق الحديث الذي وجدوه هو الشرق الحقيقي ، وانما كان صدفة ميتة ، لا ينفث الحياة فيها من جديد الا أوربا : كان السفر الى الشرق نوعا من الحج ، لا يثمر الا عندما يواجه المسافر الأخطار ويتغلب عليها ، أو عندما يرى أماكن غريبة يدير ظهره لها ويعود الى نفسه مغتنيا• وعلى الرغم من المشابهات بين الموقفين الفرنسي والانكليزي ، فان السيد سعيد مدرك لاختلافهما ، وربما هو يغالي في ذلك • فهو يقول ان الشرق المسلم بالنسبة الى البريطانيين ـ الذين أقاموا آمنين في الهند ـ منطقة للسيطرة الممكنة ـ الموجودة بالقوة ـ وأما بالنسبة الى الفرنسيين فقد كانوا مسكونين باحساس الخسارة الفادحة • ولكن الفرنسيين في تلك الفترة لم يخسروا الشرق الأوسط على نحو لا يمكن استعادته فيه ، وقد كسبوا لأنفسهم مقاطعة جديدة للخيال في الجزائر •

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر يبدأ طور جديد • فالحكومات الامبريالية تأخذ على عاتقها مسؤوليات جديدة : البريطانيون في مصر ، والفرنسيون في تونس • وبعدها يتم تقسيم الامبراطورية العثمانية ـ الذي أنذر بالحرب العالمية الأولى ـ في نهايته ، وتسقط المقاطعات الناطقة بالعربية في أيدي البريطانيين والفرنسيين ، وتصبح العلاقة بين العمل العلمي والعمل السياسي أوثق وأكثر تعقيدا، وتغدو المؤسسات ـ التي يتم من خلالها بث التقليد الاستشراقي ـ أكبر وتنظم بشكل أكثر رسمية ، وتوثق صلاتها بالحكومات • وضمن هذا التقليد تنبثق نماذج انسانية جديدة من المستشرقين• وعندها يظهر في الجيل الذي سبق عام ١٩١٤، عصر التوسع الجذل المولع بالقتال والواثق من نفسه ، « العميل الامبريالي » الرجل الذي يضع معرفته وأفكاره ، شعوره ودوافعه في خدمة الامبراطورية •

ان السيد سعيد ـ كدارس لجوزيف كونراد Joseph Conrad ـ يتعامل باطمئنان مع هذا النوع من الشخصية الغامضة والخفية والتي لا يمكن معرفتها في النهاية ، والباحثة عن خلاص شخصي عن طريق مهمة سرية أو صعبة • والممثل النمطي هو ت ، ا ، لورنس T. E. Lawrence ولدى السيد سعيد أشياء جديدة ونافذة ليقولها عن الدوافع المتشابكة والمعقدة في حياة لورنس النشطة ، وعن السرد والرؤية الشخصية في « **أعمدة الحكمة السبعة** » **Seven Pillars of Wisdom** • وكما هو

الشأن بالنسبة الى بونابرت ، فانه بالنسبة الى لورنس ـ وبواسطة رؤية خيالية للملحمة، تعاش أولا ثم تكتب ، ـ « طوى هذه الأمواج من الرجال في يدي » · لقد أعيدت صياغة أعماله اذن في الرؤية التي نجدها في رائعته المصدوعة ، ولكن من الصعب تحديد أين ينتهي السرد وأين تبدأ الرؤية ، وفيما اذا كان غرض لورنس « أن يصنع أمة جديدة ، ويستعيد نفوذا مفقودا » أو يصنع نفسه ويكتشفها · انه يصبح هو نفسه الشرق ، رجل واحد يصبح التاريخ برمته ·

وتتغير الرؤية الاستشراقية في السنوات التي تلي عام ١٩١٨ ، فأوربا متحكمة بالشرق ، وقوتها النهائية لا يمكن زعزعتها ، وحقها في أن تحكم لم يشكك به الا نادرا · ولكن نهوض شعوب آسيا أصبح يرى تحديا ، ومستشرق العصر هو المستشار الذي ـ في حين يقبل الواقع النهائي للسيادة الغربية ـ يحاول أن يُري الطريق الى حل سلمي للخلافات ، الى نوع من القبول المتبادل · وقد تتوج التقليدان الانكليزي والفرنسي بشخصيتين اثنتين يبدو أنهما تمثلان عصارتيهما : الأول هو الفرنسي لوي ماسينيون Louis Massignon الذي كانت اثارته للكاتب والشهيد الصوفي منصور الحلاج قد تشكلت ليس عن طريق التقليد الأوربي في الدراسات الاسلامية وحسب ، وانما عن طريق حساسية جمالي ووعي كاثوليكي كان مما يميز الفرنسي في ذلك الوقت ؛ والثاني هو الأوسكوتلاندي هاملتون غيب Hamilton Gibb الذي ترجع صلته الى الأصول نفسها مارة بتوماس أرنولد Thomas Arnold وروبرتسون سميث Robertson Smith ، والذي تستدعي رؤيته في استمرارية الجماعة الاسلامية وتطورها عبر التاريخ بسهولة الى الذهن الواعي بالمسؤوليات الامبريالية والمعتنق لرأي بروتستانتي معين للكنيسة ·

ان السيد سعيد يكتب عن كليهما باحترام لثقافتيهما، ولنوعية فكريهما، ولشجاعتهما، ولكنه يعتقد أنهما قد وقعا في شرك قالب العقل الاستشراقي : فالدراسات الشرقية لم تعد على تقليدها بالنظرة النقدية ، كما كانت العلوم الانسانية تفعل في ذاك الوقت · وكانت الحقيقة النهائية بالنسبة الى ماسينيون وغيب كليهما شيئا ما يسمى « الاسلام » ماثلا الى الأبد ، ومختلفا دائما عن الغرب ، حيث ذابت فردية الكائنات البشرية وفروقات الأزمنة والأمكنة ·

لقد توفي ماسينيون عام ١٩٦٢ ، وغيب عام ١٩٧١ ، وبالنسبة الى أولئك الذين عرفوهما منا ، ويمكن لهم أن يقارنوا ذكرياتهم بما يكتبه السيد سعيد عنهما ، فان شكوكا وتساؤلات يمكن أن تثار · ان كتابته قوية ورائعة (هي أحيانا قوية الى درجة القلقة ، ورائعة أحيانا أخرى الى درجة عدم الوضوح) ولديه براعة النفاذ الى الارادة الانسانية وتصوير بنية الرؤى الانسانية ، ولكن أليس من الممكن أن يكون هو نفسه قد سقط في الشرك الذي قدمه ، وأنه قد أغرق الفروقات الانسانية في مفهوم مجرد اسمه « الاستشراق » ؟ ما هي منزلة هذا المفهوم ؟ وما هو نوع الصلاحية التي يمكن أن يزعمها للبيانات العامة التي يدلي بها ، بيانات ك : « **المستشرقون ليسوا مهتمين بمناقشة الأفراد**

ولا قادرين عليهـا » ، ان المستشرق متميـز « **بغياب تعاطف مقنع بمعرفة محترفـة** » ٠ بمعنى ما ، ان الجـواب سهل ، فما قام بـه السيدسعيد هو انشاء نمط نموذجي للمستشرق؛ مصنوع من عدد من العناصر المتصلة ببعضها البعض منطقيـا ، والبعيـدة عن تأثير أيـة عناصـر خارجية أو عارضـة ٠ ولكن هـذه الأنماط النموذجية ، وكما يعرف كل عالـم اجتماع ، ينبغي أن تستخدم بعناية وحـذر حتى يمكن لها أن تفسر الوقائع الخاصة ، أو الكائنات البشرية ٠ فليس هنالك من شخص يمثل بشكل كامل نمطا واحدا ، ان كل فرد ينبغي أن يُرى على ضوء عدة أنماط ٠ ان نمطا واحدا من هذه الأنماط يمكن أن يشرحه أكثر من الأنمـاط الأخـرى ، ولكـن بعض النكبة الفردية التي لا يمكن أن تعزى سيبقى في النهاية ٠ اننا ، اذ نبدي اعجابنا بأناقـة هيكل السيد سعيد ، ينبغي أن نظل نسأل الى أي مدى يمكـن أن يخدم كمبـدأ في شـرح الكائنـات البشـريـة التـي يكتب عنهـا ٠ السياسيون وخدمة المستعمـر ؟ على وجـه الاجمال ، نعم ٠ ان استشهاداته من اللـورد كـرومـر Lord Cromer (الحاكم البريطاني لمصر بعد ١٨٨٣) وآخرين مناسبة ، وكـان بامكانه أن يجد الكثير مما يبرهـن علـى نقطته : التضاد الواعي « للشرق والغرب » وأفكار كـ « الاستبداد الشرقي » و « الركـود الشرقي » وفكرة أن الشرقيين لا يفهمون غير لغة القوة، أعطت بالفعل الانكليز والفرنسيين ضمانة أن حكمهم للشعوب الشـرقية كـان طبيعيا وصحيحا ٠ والكتّاب الخياليون يمكن أن يفهموا أيضا على أنهم يعملون ضمن هذه الافتراضات، وخاصة كتاب العصر الرومانتي، شاتوبريان لامارتين Lamartine فلـوبـير Flaubert دونـرفـال De Nerval فشرقهم كان حصيلة الخيال ، ومناهج السيد سعيد المصقولة والدقيقة في التحليل ، أدوات جيدة في تعرية بنيـة الخيال الأدبي ٠

ولكنه ، ربما كان لا يسير علـى أرض راسخة كهذه ، عندما يكتب عن الباحثين ٠ وقد وجدهنا أيضا استشهادات مخبرة : قول تيـودور نولـدكـه Theodor Nöldeke ان عمل حياتـه قد أكد فقط رأيه السيىء في الشعوب الشرقيـة ، أو زعـم غيب Gibb أن العقل العـربي غير قـادر على التفكير العقلي ٠ ان بعض عناصـر « الاستشـراق المستتر » كانت ماثلة حقا في عقول غالبيـة باحثي الاستشراق في الفترة التي يعالجها ٠ واذا لم تكن ازدراءً خاصا لهـؤلاء الذيـن يكتبون عنهم ، فقد كانت على الأقل اعتقادا بأنهم فهموا هؤلاء النـاس وعرفوا لغاتهـم ومعتقداتهم أكثر منهم ٠ ولكننـا ينبغي أن نظل نسأل الى أي حد دخل هذا الاعتقاد الى عملهم ورسم اتجاهه وحدوده ٠ وحتى نجيب على هذا فاننـا ينبغي أن نمضي الى ما وراء الملاحظة العابـرة Obiter dicta الى عملهـم الجدي المحترف ، وأن نسأل فيما اذا شُكـل وشوّه عن طريق هذا التضاد الفج بين الشرق والغرب ، أكثر مما شكل عن طريق مفاهيـم أكثر ملاءمة لموضوعها ، والى أي مدى قامت نتاجاته بتثبيت هذا التضاد وتعزيزه ٠

ليس من الضروري أن تكون ذكيا حتى تصبح باحثا ، وقد كان هنـاك الكثير مـن الباحثين الذين لم يظهروا حتى في أكثر أعمالهم وزنا أية براعة باستثناء براعات اللغة ، ولم يستخدموا أية أفكار باستثناء تلك التي كانت معروفة في العصر بشكل عام ٠ وحتـى

المستشرقون العظام وجدوا أنفسهم مكرهين بسبب الظروف أن يتحدثوا ويكتبوا في أشياء تتجاوز الى حد بعيد حدود كفاءاتهم الحقيقية • وقد أفادوا في ذلك من الأفكار الملتقطة من الجو المحيط • وعندما كتب أغلبهم عن السياسة، أو علم الاجتماع، أو الشخصية القومية، أو التاريخ ، أو الأدب ، فانهم كتبوا ذلك كهواة على وجه الاجمال •

ان هناك على أي حال خيطا مركزيا واحد من الاهتمام ـ يسري في نتاج الباحثين الاسلاميين العظام ـ بأصل جميع أنظمة الفكر التي حاولت الابانة عما يعتقد المسلمون أنه الوحي الذي منح للنوع الانساني من خلال النبي محمد : الحديث، القانون ، علم الكلام، والفكر الصوفي • ان قرنا كاملا من الدراسة لهذه الأمور قد أنتج عملا لا يمكن اعتباره مؤدى على نحو سيىء • ففي هذا العمل استعمال حذرومتأن للمصادر الأصلية،وتجنب للتعميمات التي لا أساس لها ، واحساس بالصلات المتبادلة بين الحركات الفكرية والوقائع السياسية والاجتماعية ، وشعور بنوعية المفكرين الأفراد كما تفصح عنها أعمالهم أيضا • ان الفرد لم يُستغرق في مفهوم عام في اكتشافات تفصيلية لعوالم الفكر الشخصية ، كما هو الشأن في دراسة ماسينيون للحلاج، ولاوست Laoust لابن تيمية، وريتر Ritter لفريد الدين العطار • صحيح أن مفهوما عاما قد كون عملا كهذا : انه الاسلام كنظام فكر ، تم النظر اليه من حيث صلته بالأنظمة السابقة : الاغريقية ، المسيحية واليهودية • ولكن هذا المفهوم ليس شكلا آخر لفكرة « الشرق » كما وصفها السيد سعيد • انه الاسلام مرئيا ليس كوجه معكوس من شيء آخر ، ولكن ضمن طبيعته الخاصة • ومن المؤكد أن هذا مفهوم ملائم لموضوعه • وفي حدود هذا العمل ، فان هؤلاء الذين دعاهم العالم بالمستشرقين ليسوا مرتكبين لما يسميه السيد سعيد « بالاستشراق » •

ان السيد سعيد يعرف أساسا هذا وهو يعترف «بعمل الكثيرين من الباحثين المخلصين» ولكنه في الحقيقة لا يتعامل معه في كتابه • وربما كان وراء ذلك سببان ؛ أحدهما أنه حذف من مسحه الباحثين الذين كتبوا بالألمانية • وقد فعل ذلك لأنه في ألمانيا « لم تكن لأية شراكة وثيقة بين المستشرقين والمصالح القومية الدائمة والمرسومة في الشرق أن تتطور في أي وقت من الأوقات » • وهذا سبب وجيه اذا ما أعطي شروطه الخاصة في الاشارة، ولكنه قاده الى اهمال شيء هام • وثانيهما أن العمل في ميدان التاريخ الديني والثقافي ـ بسبب كونه مجهدا وصلدا كما هو الشأن فيه ـ كان في غالبه مملا ، وكانت تعوزه الومضة التي يمكن أن تستهوي ذهن السيد سعيد •

ولكن كان هناك رجل مثير ذو عبقرية بينهم • وقد استدعى جميع قوى ذهن سعيد، انه الفرنسي لوي ماسينيون • ان صفحاته عن ماسينيون هي من بين أفضل صفحات الكتاب • ولكنها بمعنى ما ، تُري كم هو قليل ذاك الذي يمكن أن يقدمه نمط نموذجي « للمستشرق » من مساعدة في فهمه • ان السيد سعيد يدعي أن ماسينيون « في اتجاه واحد ، تبقى أفكاره عن الشرق تماما تقليدية وشرقية Oriental • ولكن الذي يقوله فيه ربما يتركنا مع الانطباع المعاكس • فهو يكتب عن « الذكاء الطاغي ، والعبقرية

الصافيــة ، وعن جــدة عقل ماسينيــون » ؛« الكياسة ، والأسلوب الشخصي ، وعبقريــة الفرد ، ربمــا تتخطى في النهايــة الكوابــح السياسية التي تعمل بشكل غير شخصي مــن خلال التقليد والمحيط القومي » ٠

ان العالم المسلم ، لم يكن في الحقيقــة بالنسبة الى ماسينيون بالمعنى الأكثر عمقا ، منطقة يلاحق فيها بلده أهدافا سياسية ٠ لقدكان مليئا بالرجال والنساء الافراد، المحبوبين، المفهومين ، المدركين في طبيعتهم الفردية ، ولم تكن الصلة بين المسيحية والاسلام صلة وجود وعدم وجود ، ولكنهــا كــانت صلة تبــادل واستبدال ٠ وكما قال البــاحث الفــرنسي جــاك بــيرك Jacques Berque لأولئـــك الذين عرفوه ان هنالك أماكن ـ كنيسة معينة في القاهرة وشــارعا معينــا ـ سيكون فيهــا حاضرا على الدوام ٠

أسئلة كهذه يثيرها أيضا القسم الأخــير من الكتاب : « الطور الأخير » ٠ وأطروحــة السيد سعيد هي أن تراث الاستشراق الأوربي قد نقل الى الولايات المتحدة ، وتم التعبــير عنه بلغة العلوم الاجتماعية ، وتجسيــده في مؤسسات ربطت بشــكل وثيــق بالمصالــح والسياسات الأمريكية في الشرق الأوســط ،واستخدمت كسلاح في الصراع بين اسرائيل والفلسطينيين ٠ وثانية ٠ من المحتمل أن يكون محقا فيما يتعلق بالصور الشعبية ٠فالعرب بالنسبة الى الأفلام والسياسيين وجزء كبير من الصحافة هم الظــل الشــرقي البغيض ، الغامض ، الجبان ٠ ولكن مــرة أخــرى انشكوكا أكبر تثار عندما يكتب عن الباحثين ٠

ان هذه الشكــوك نوعــان : أولهما أن السيد سعيد يختار أسلوبا أو لهجــة معينــة تجعل القارىء مقلقــلا ٠ ان وعيــه بأسلوب الكتاب الآخرين يجعلنا أكثر وعيا بأسلوبه ٠ لقد أخبرنا في بداية الكتاب بطريقة صريحة ومحركة بالدافع الشخصي الذي قــاد جزئيا الى كتابتــه ٠ ان السيــد سـعيد كعــربي فلسطيني يعيش في الغــرب ، يجــد حياتــه « مثبطة للهمة ٠٠٠ نسيج العنصرية ، والقوالب الثقــافيــة الجــاهــزة Stereotypes والامبريالية السياسية٠ وقبضة الأيديولوجية التي تنزع عن الانسان انسانيته ، الممسكــة بالعربي أو المســلم قوية جــدا بالفعل » ٠ان اللهجة في هذا القسم الأخير هي لهجة المرء الذي يجاهد لخرق هذا النسيــج ، ونقــده العنيف يمضي في بعض المواضع الى حد اتهام الباحثين بســوء العقيــدة ٠ ولئن كانت هذه الاتهامات منظمة ومعززة بالشواهد ، فانها ربما كانت عقبات أمــام القول المتعقــل ٠ وحتى في ورودها في موضعين أو ثلاثة ، فانها ربما تسبب استياءً خطيرا وتقود الى عــدم أخذ الكتاب بدرجة الجد التي تنبغي له ٠

وفيما عدا هذا فان المرء الذي يعمــل في حقل الدراسات الشرق ـ الأوسطية ربمــا يجد هذا القسم من الكتاب قديما ٠ ان السيد سعيد لا يناقش هنا النتاج الذي يقدم اليوم ويعبر عنه بالمقــالات والرسائــل العلميــة Monographs وكلمات الأساتــذة ، وانمــا أعمال التركيب ، والتي تجسد بطبيعتها نتاج الماضي ٠ ان أفضل العمل الراهن في أوربــا وأمريكا كلتيهمــا يبدو أنــه قد خــرج على الاطار « الاستشراقي » وعاد بالنقد علــى

نفسه ، وأخصب بأفكار العلوم الانسانية للعصر · والسيد سعيد واع بهذا · فهو يذكر أعمال جاك بيرك ، ومكسيم رودنسون Maxime Rodinson في فرنسا ، وكليفورد غيرتس في أمريكا Clifford Geertz وروجر أوين Roger Owen في انكلترا · ولكنه كان من الممكن أن يمضي الى أبعد من هذا ، ويكتب عن التراث المستمر أو المستعاد للتاريخ الديني في ألمانيا ، وللعمل التاريخي الفرنسي الجديد المنمذج بواسطة الماركسية والمدرسة الملتفة حول مجلة Annales (المهتمة بالتاريخ الاجتماعي) · ان مؤرخا للشرق الأوسط في عصرنا الحاضر ، كلود كهين Claude Cahen لم يذكر مرة واحدة · ان حقل الدراسة هذا يستعيد حيويته ـ مثل جميع الحقول الأخرى تقريبا ـ على يد الباحثين الأمريكيين الشباب : المؤرخين ، الأنتروبولوجيين ، ودارسي الأدب ـ على الرغم مما يقوله عن اهمال الأدب الآن ·

ان الكلمة الأخيرة هي : ان عمل اليوم يظل ـ الى حد بعيد ـ يعبر عن تصور أوربي وأمريكي للشرق المسلم « ان العالم العربي والاسلامي يظل قوة ثانوية في ميدان انتاج الثقافة والمعرفة والبحث » · هناك بعض الاستثناءات : فليس ثمة مؤرخ عثماني يمكن أن يهمل عمل خليل انالجك Halil Inalcik ومؤرخين أتراك عظام آخرين · ولن يستطيع دارس لشمال افريقيا أن يتجاهل أفكار عبدالله العروي الأصيلة والأساسية · ولكن ، بشكل عام ، يبقى من الصحيح أن دارس العرب والفرس الغربي يظل يعمل ضمن بنية أفكار خلقت من قبل دارسين غربيين آخرين · ان العرب والفرس « كقوة شعر بها وخبرت على نحو حقيقي » ما زالوا غير حاضرين في الثقافة الغربية · ولكن هذا يحتاج الى كتاب آخر يشرح لماذا كان الأمر على هذا النحو ·

★ ★ ★